الشعر في حياتنا...

فتنة الشعر وغوايته المتجددة

عبد العزيز المقالح

"الشعر علّم قوم لم يكن لهم علم أعلم منه".
عمر بن الخطاب

"هل يكفي الشعر أن يحفر وعده في جوف الوقت؟".
أدونيس

"الشعر يقوّم الخطأ ويحرك السماء والأرض والأرواح والآلهة".
حكمة صينية

"لا يبقى العالم كما كان بعد أن تضاف إليه قصيدة جيدة".
ديلان توماس

لم تكن فتنته لغواً، ولا غوايته كلاماً في الهواء. ذلك هو الشعر، الغواية الإبداعية التي شكلت - عبر التاريخ الضارب في القدم- حاجة روحية لا غنى للبشرية عنها تحت كل الظروف وعلى اختلاف الأحوال. وقد يكون بإمكان الدارسين الكثيرين الذين ينكبون على تاريخ الشعر، أن يعثروا له على بداية ما. لكنهم سيظلون أبعد ما يكون عن التنبؤ له بنهاية، وذلك لأنه من الفنون القليلة التي تعمل على اتساع مساحة الحلم وتعميق إحساسنا ووعينا بإنسانيتنا، والتي يصعب، بل يستحيل الحديث عما بعدها، كما هو الحال مع الأفكار والمبادئ الاقتصادية والسياسية والمذاهب الفكرية والأدبية، حيث نقرأ عما بعد الرأسمالية، وما بعد الحداثة والبنيوية، وما بعد الكلاسيكية والرومانسية، إلى آخر الماورائيات التي نتجاوز معها الأسئلة القديمة إلى أسئلة حديثة وأكثر حداثة.

ولعل أهم فاعلية يحققها الشعر للبشرية عبر موسيقى الإيقاع، أكانت خارجية أم داخلية، والتي ترتعش لها النفس ويهفو إليها الوجدان، تلك الغبطة اللذيذة والرغبة العميقة في مسايرة الشعراء في مغامراتهم اللغوية المدهشة، وتأويل ما يتوصلون إليه من رؤى وصور شعرية تستأثر باهتمام القراء على اختلاف حظوظهم من امتلاك متفاوت لما يسمى بآليات التلقي. ومن الميزات التي يحظى بها الشعر أنه الفن القولي الوحيد الذي يجد فيه القراء العاديون نصيبهم، كما يجد فيه خاصة القراء نصيبهم أيضاً. ومع تطور العلوم ووصول الإنسان إلى القمر، لم تتكسر رغبة الشعر في الحلم، ولم تنجح الاكتشافات العلمية المذهلة في تحطيم شهوة المغامرة الشعرية، التي تمضي من منطقة قصية إلى منطقة أقصى، مؤكدة أن الواقع وما وراء الواقع سيظلان يمدان الشعر بما لا يمكن حصره من الأخيلة.

ويبدو لي أن حاجات الإنسان الروحية غير الآنية، ومنها الشعر، ستظل تصحبه إلى ما شاء الله. وفي عتمة الأوضاع المتردية الراهنة، ستظل التجربة الشعرية قادرة على أن تضيء الوجدان وتنشر المزيد من الحب والأمل، وتعكس – في الوقت ذاته- أَرَقَ الكون وأحزانه تجاه ما يرتكبه الخارجون على قانون المحبة والعدل والحرية. صحيح أن أكثرية ما ينشر ويقال باسم الشعر، يفتقر إلى المعنى الحقيقي للشعر، والقليل جداً من هذا الذي ينشر ويقال هو الذي يحمل الدفء الداخلي الخاص؛ إلاَّ أن ذلك لا ينفي حب الناس للشعر، وإقبالهم عليه، بوصفه التعبير الفني والجمالي الأعمق والأكثر نفاذاً إلى الروح، ولا يمكن لأي شكل إبداعي آخر أن يأخذ مكانه أو يغني عنه، لما له من خصوصية تعبيرية متوهجة في لغته وفي طريقة أدائه.

■ ● ■

ولعل أهم فاعلية يحققها الشعر للبشرية عبر موسيقى الإيقاع، أكانت خارجية أم داخلية، والتي ترتعش لها النفس ويهفو إليها الوجدان، تلك الغبطة اللذيذة والرغبة العميقة في مسايرة الشعراء في مغامراتهم اللغوية المدهشة، وتأويل ما يتوصلون إليه من رؤى وصور شعرية تستأثر باهتمام القراء على اختلاف حظوظهم من امتلاك متفاوت لما يسمى بآليات التلقي

■ ● ■

كثيرة هي تعريفات الشعر، وأكثر منها محاولات تفسيره أو الكشف عن ماهيته. وأقرب ما يسعفني منها الآن هذه الإشارات الغنية في دلالتها التي تميز الشعر عن غيره من الأنساق الفكرية والجمالية تلك التي يبدعها الإنسان، "بكونه يمتح منها جميعاً، ولكن بطريقة تضمن له تأسيس خصوصيته الإبداعية الكائنة في القدرة على التحويل والصهر. فعودة الشعر إلى الأسطورة، مثلاً، لا تتم عبر محاكاة آلية لعوالمها، ولكن من خلال تركيزها وامتصاصها وإعادة إنتاجها وقد اكتسبت بعداً رمزياً جديداً يصلح للدلالة على أكثر من موقف وأكثر من تجربة. ومن هنا نستطيع القول: إن الشعر يعيد نحت التسميات بالإفراد والتركيب تبعاً للأشكال الجمالية الباذخة،

وتبعاً لحـــرارة التجربة التي يؤججها طقس الكتابة ورهافة الأحاســيس العميقة المدعومة بحدســها؛ وعندئــذ يتحقــق للنصــوص الإبداعيــة وجودها القدســي المتعالي عــن الميتافزيقيــا والعلم في آن واحد".[1]

بهذه العلامات أو الإجابات المقترحة على طريق ارتياد موضوع "الشعر في حياتنا"، يمكن القول إن الشعر كان وما يزال يشكل مجموعة من الانعكاسات والأصداء في حياة الإنســان، ويرســم بالإيحاءات أو المحسوســات ملامح غير مباشــرة من التاريخ بكوارثه ومباهجه. ويمكنني القول -دون مبالغة- إن الشعر ما يزال مصدر تأثير كبير وواسع في حياتنا الراهنــة. وحين أقول هذا، فأنا لا أنظر إلــى ما يصدر من دواويــن مكتوبــة بالفصحى والعامية، ولا إلى ما تنشــره الصحــف والمجلات وتقدمه الإذاعــات والفضائيــات، وإنما أمد النظر إلى أماكن أوسع وأكبر، قريبة وقصية، تتمثــل في القــرى والنجوع والواحات، حيث الشــعر في صورتــه الأولــى يتحســس أنفــاس الإنســان وزفراته، ويرتوي بما في الأرياف من جمال وحيوية، ويعيش مع الناس في أعمالهم وفي استراحاتهم، يتناقلونه في الفضــاء المفتوح بعيداً عن النــوادي والقاعات والصالونــات المكتظة بدخان الســجاير والنميمة وبما لا يكاد يمتُّ إلى الشعر بأدنى صلة.

■ ● ■

هناك شعر تصنعه الحياة، وشعر يصنع الحياة. شعر ينشده الإنسان وحيداً، وشعر ينشده الإنسان والدهر معاً

■ ● ■

وفــي هذا الصدد هناك شــعر تصنعه الحياة، وشــعر يصنع الحياة. شعر ينشده الإنسان وحيداً، وشعر ينشده الإنســان والدهر معاً. وسأمثل لهذا الشــعر، الذي تصنعــه الحياة، ببعــض مما كتبه الشــاعر طاهر رياض فــي ديوانــه الرابع "حلاَّج الوقت":

على حين غرَّةْ
رماني
وألمني
واصطفاني
وغيَّر فيَّ
وغيَّر بي
وابتلاني.
وحين تذكرته وحننتُ
شكاني إليَّ
إليه
وأفرغني مثل جرَّةْ
على حين غرّةْ! [2]

ومن الشــعر الذي يصنع الحيــاة نماذج كثيرة لا تحصى، لشــعراء لا يحصون عدداً، من الماضي البعيــد والقريب، ومن الحاضــر الراهن. وأقرب نموذج إلى هذا الشعر قصائد سعدي يوسف، وما تتمتع به من جاذبية الموضوع وجاذبية الأسلوب.

تطير الحمامات في ساحة الطيران
البنادق تتبعها، وتطير الحمامات
تسقط دائخة فوق أذرع من جلسوا
في الرصيف
يبيعون أذرعهم.
للحمامة وجهان:
وجه الصبيّ الذي ليس يؤكل ميتاً،
ووجه النبيّ الذي تتأكَّله
خطوة في السماء القريبة.

تطير الحمامات
في ساحة الطيران، ارتفعنا معاً..
في سماء الحمائم،
قلنا لسعف النخيل
وللسنبل الرطب:
هذا أوان الدموع التي تضحك
الشمس فيها،
وهذا أوان الرحيل إلى المدن الفاضلة[٣]

وكثير هو الشعر الذي ينشده الإنسان لنفسه ومع نفسه. ومنه هذا الحوار الذاتي المفترض بين شاعرين: من المنصف الوهايبي إلى زميله محمد الغزي في تونس:

قال: بيتي السماء.
قلتُ: إن العصافير أقرب مني إليه، إذاً!
قال: عرشي على الماء.
قلت: وهل سمَكُ النهر
أقرب مني إليه، إذاً!؟
قال: فيكم أنا
والقلوب التي عميتْ سترى.
قلت: كيف؟!
ألستُ بريئاً أنا كالندم؟!
قال: إن لم تكن، فشبيه بهِ.
قلتُ: إن مُتَّ؟
قال: لكم ملكوت السماء
لكم كل هذا العدم![٤]

أما الشعر الذي ينشده الإنسان والدهر معاً، فهو هذا الذي يأتي عاصفاً وصاعقاً على غرار صاحب هذا الصوت الجسور الممتلئ ثقة بالنفس وكبرياء لا يجارى:

وما الدهر إلاّ من رواة قصائدي
إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا
فسار به من لا يسير مشمراً
وغنى به من لا يغني مغردا.[٥]

ولصاحب هذا الصوت أنداد وأشقاء، وله محاكون ومقلدون عبر القرون التي جعلته عالقاً في الذاكرة لا يبرحها. ومن الأنداد المعاصرين الذين يقفون على الضفة الأخرى من النهر الذي شقه صاحب ذلك الصوت، نذكر الشاعر نزار قباني، صاحب الشهرة الأوسع في تاريخ الشعر العربي الحديث، والذي ترك أهم أثر في حياة الشبان والشابات بموضوعاته شبه اليومية، وبلغته الموحية والمؤثرة.

عندما يمتزج الأخضر
بالأسود، بالأزرق،
بالزيتي، بالوردي،
في عينيك، يا سيدتي!
تعتريني حالةٌ نادرةٌ
هي بين الصحو والإغماء،
بين الوحي والإسراء،
بين الكشف والإيماء،
بين الموت والميلاد،
بين الورق المشتاق للحب،
وبين الكلمات
وتناديني البساتين
التي من خلفها أيضاً بساتين،
الفراديس التي من خلفها أيضاً فراديس،
الفوانيس التي من خلفها أيضاً فوانيس
التي من خلفها أيضاً زوايا، وتكايا، ومريدون
وأطفال يغنون، وشمعٌ، وموالد
وأرى نفسي ببستانِ دمشقي
ومن حولي طيورٌ من ذهبْ
وسماء من ذهب
ونوافير يثرثرن

بصوت من ذهبْ.[٦]

وهناك -غير هذه النماذج - شعر يبني، وشعر يهدم. ويكون الشعر الذي يهدم، في وقت من الأوقات، أهم من الشعر الذي يبني لأن بعض أنواع الهدم وسيلة ناجعة من وسائل الإعداد للبناء الصحيح. وكثير من الشعر المبثوث في الأوراق لا يبني ولا يهدم، ولا يستحق أن يقال له شعر لأنه رديء في لغته، ورديء في معانيه، ورديء في شكله، ورديء في تأثيره. والشاعر العربي المعاصر الأكثر شهرة بالهدم هو أدونيس، هذا المتمرد في شعره، وفي لغته، وفي حياته، وفي كتاباته، كما في أفكاره. وهو الأكثر حرصاً على البناء الحقيقي، وعلى الاستفادة من الثقافة العربية المشتركة، التي يرجع تاريخها المدون إلى أكثر من عشرين قرناً.

أتريدونني أن أكون أميراً عليكم،
وأنتم عبيد؟
أن يقال: أنا صوتكم،
وأنا مثلكم لست حراً؟
إفهموني، إذاً،
إن بدأت بقتل العدو
الذي فيّ من أولٍ، وفيكم.
العدو الذي يتوهم
أني لا علمَ عندي بأوهامِه.
إفهموني، إذاً،
إن وضعت حديدي عليَّ،
عليكم، على أرضنا.[٧]

■ ● ■

إن كل محاولة لرسم تخطيط أولي عن تأثير الشعر في حياتنا الراهنة، لن تنجح في غياب قراءة تاريخية تعي العلاقة بين الإنسان وبين هذا الفن العظيم.

■ ● ■

إن كل محاولة لرسم تخطيط أولي عن تأثير الشعر في حياتنا الراهنة، لن تنجح في غياب قراءة تاريخية تعي العلاقة بين الإنسان وهذا الفن العظيم. يضاف إلى ذلك قراءة الشواهد والمدونات القديمة والحديثة التي تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن الإنسان -عبر العصور ومنذ وعى إنسانيته- لم يكن محض لحم ودم وعظام، كما لم يكن خبزاً وثوباً وعملاً، بل كان -حتى عندما تنحط ثقافته وتصل إلى مستوياتها الأدنى- إنساناً مفتوناً بجماليات الحياة. ومهما كان تركيزه على توفير وسائل العيش فإن شيئاً ما في نفسه يحثه على اقتناص لذة المعنى، ويجعله دائم الحنين إلى الفنون، وإلى الشعر على وجه الخصوص بوصفه جوهر هذه الفنون، لأنه -كما نعي جميعاً- يجمع بين الكلمة / اللغة، واللحن/ الموسيقى، والصورة/ الرسم. ولذلك أطلقوا عليه -في وقت ما- تسمية: الأب الشرعي للفنون.

وكما يحتاج الإنسان إلى الهواء والماء، فهو بحاجة إلى الشعر، هذا الغذاء الروحي الذي، بالإضافة إلى ما يحققه من نشوة فنية عالية لقارئه ومستمعه، فهو -كما يرى علماء التربية والأخلاق- أكثر نجاحاً في تقويم السلوك وإصلاح اعوجاج الألسنة؛ ولهذا كان، وما يزال، وسيبقى، يعبر عن حاجات إنسانية كثيرة وليس عن حاجة واحدة؛ ذلك بما يحمله من آلات تصوير دقيقة للمشاعر. وبعض هذه الحالات مخفي لا ينقل الظاهر والمتجسد من

الأشياء وإنما يوحي بها، ويرسم ظلالها وما يتخفى في تضاعيفها من معانٍ وأسرار ومن تجليات عالم مخفي وكائنات غامضة يصنعها الخيال ويضيف بها إلى عالم الواقع المحسوس عوالم يستعين بها المبدع –كما القارئ– على إثراء الوجود الإنساني بمزيد من المرئيات والأشكال المتخيلة.

في البيت أشجارٌ وشمسٌ
والسماء العائلية لا تنامُ،
تظل ساهرة لتحرس نومنا،
وتظل ساهمةً لتحرس صحونا،
تدنو كثيراً كي تلامس صمتنا
وتروح تعلو ثم تعلو كلما انطلقت نجومٌ من رؤانا
ليس من حُجبٍ تحدُّ سماءنا
تدنو وتعلو دونَ حدٍّ أو حجابْ
وتشوقنا في كل آونةٍ بنافذةٍ ونافذةٍ.. وبابْ.
هذي السماء قريبةٌ في بعدها
وبعيدة في قربها
والشمس فيها تَوْقُنا نحو الجهات النائيات،
وتحتها الأشجار بعض همومنا.[٨]

هذا هو صوت الشاعر جودت فخر الدين الذي استطاع في مقطع شعري واحد من قصيدة طويلة أن يصنع من أحلامه، التي هي أحلامنا، وبنبرة مطمئنة، أشجاراً وشموساً وسماءً ونجوماً عائلية أليفة تضاف إلى ما في بيته من أشياء واقعية محسوسة. وهذا الشعر الذي يوحي بحاجتنا إلى مزيد من الأنهار والبحار، وإلى إيقاظ الطبيعة الميتة بالشعر وبمفرداته المسكونة بالصوت والصورة والحركة والحضور، هو ما تحتاج إليه حياتنا. ومهما حاولت مدارس الفن الحديث ومذاهبه أن تبتعد بالفنون القولية –والشعر في مقدمتها– عن دورها الوظيفي الفاعل والمؤثر، بحجة تجنب المباشرة، فإن هذا الدور يبقى ماثلاً حتى وإن ابتعدت الفنون عن الأهداف والمضامين خارج مفهوم الرسالة التعليمية. لأن لكل فن قيمة ذاتية لا تفارقه تحت أي ظرف أو شكل. وتأثير هذه القيمة قد لا يرتبط بدلالة ذات وظيفية اجتماعية أو سياسية أو عاطفية. وتجليات هذه القيمة في الشعر تبدو بوضوح في طريقة التعبير وفي اللغة التي تشكل في حد ذاتها كوناً جمالياً آسراً بتراكيبه وانزياحاته، وبالمفردات التي تتجول بكامل عفويتها داخل النص الشعري باعثة في نفس القارئ أقصى ما تستطيعه من المسرات والنشوة.

فلنقل: نحن هنا أندلسيون!
فلا نطلب في الأرض سوى ما يطلبه الحُجَّاجُ
أبناءُ السبيلْ
ولنا من لغة الله كلامٌ
نتهجَّاه على تجعيدة الصخر،
ونقراه مع الطير هديلاً بهديلْ
واتَّحدنا بالمسافات، وبالوقت،
فما عاد لنا بدءٌ، وما عاد وصولْ
ولنا البرزخ، والمعراج فينا
واتصال القدم العاري بماء البحر،
أو بالرمل عشقٌ وحلولْ
الصحارى استرجعت فردوسها
والبحر من أعلام من مروا عليه أرخبيلْ
واكتشفنا وطناً في زهرة الدفلى
ووقتاً صافياً يرشح في الوديان
من كر الفصول.[٩]

إن غواية الشعر، بوصفه فناً إنسانياً لا غنى للبشر عنه على اختلاف مستوياتهم الثقافية، لا تأتي من كونه صوت الحب وصوت الفرح والحزن فحسب، وإنما لكونه صوت تمجيد نضالات الإنسان في سبيل الحرية والعدالة الاجتماعية أيضاً، صوت

التحريض علـى مقاومة المحتلين والغـزاة، هؤلاء الغرباء الذين يسلبونك الدار والأرض ويساومونك على الهوية التي تُعدّ آخر ما يتمسك به المشرد عن وطنه.

يقول لنا الشعر في زمن الكارثة:

دمٌ
ودمٌ
ودمٌ
في بلادك.
في اسمي وفي اسمك، في زهرة
اللوز، في قشرة الموز، في لبن
الطفل، في الضوء والظل،
في حبة القمح، في علبة الملح...
قناصةٌ بارعون يصيبون أهدافهم
بامتياز
دماً،
ودماً،
ودماً...
هذه الأرض أصغر من دم أبنائها
الواقفين على عتبات القيامة مثل
القرابين. هل هذه الأرض حقاً
مباركةٌ أم معَّمدةٌ
بدمٍ
ودمٍ
ودم
لا تجففه الصلوات ولا الرمل؟[١٠]

الشـعر إذاً، هو هذا وذاك، وهـو صورة ولغة وموسـيقى، وهو مفـردة تدخل الوجـدان لتصنع وجودها المسـتفيض. وهذه الفاعليـة اللغوية هي صانعة الشـغف وأداة التحكـم الجمالي الفني في تكوين التأثير الإمتاعي.

وتبقى في هذا الرصد السريع والعابر إشارات إلى شعر القلق والأسئلة. وهو شعر بالغ التأثير في حياتنا، سواء على المستوى الخاص أم على المستوى العـام. وهذا النوع من الشـعر مهمتـه أو وظيفته تحريضيـة ناجمة، وله شـعراؤه الذين يميلون إلى التأثير على القارئ من خلال اسـتخدام أسـلوب الصدمـة ببراعـة. ومن هـؤلاء الشـعراء: مظفر النـواب، وأمل دنقـل، ومحمد الماغـوط. والأخير يمثل هذا المستوى الشعري بامتياز، وقد ترك قلقه آثاراً بالغة على جيل من الشـعراء الشـبان الذين نقلوا بدورهم هذا المنحـى القلق إلى جمهور كبير من الشعراء عبر قصائدهم الغاضبة والرافضة.

أيها الطفل
أيها القاتل
أسناني أحنتها الريح
من غرفتي النتنة
من بين جذور القمح وأظافر الموتى
أخاطبك أيها القاتل
على لساني خمسة عصافير
من الدهن والمطر
نواة غابة تغطيها الثلوج
بين أسناني خمس سفن من الدموع
وغزال يتأبط صحراءه كالتلميذ.[١١]

إن شـعراً حـاداً وجارحاً كهذا الشـعر يجعل القارئ يكتشـف غابة الأخطـاء والمتناقضات التي يعيـش بـين ظهرانيهـا ويطالع صـورة الظروف المأسـاوية التي يخضع لها الإنسـان بإرادته حيناً ودون إرادتـه في أحيان كثيـرة. وبديهي أن القارئ تفتنـه هذه التفاصيل التي تبدو قصيرة ومقتضبة، وغير مترابطة؛ لكن الشـاعر يجيد الاستعانة بهذه العناصر المسـتعارة من السرد لكسـب المزيد من

التأثير في القارئ.

وبما أن العنوان الرئيس لموضوع الدراسة، وهو "الشعر في حياتنا"، لم يحدد طبيعة هذا الشعر، لغته، شكله، قدامته أو حداثته؛ فإن من حق أي باحث أن يتتبع هذا الشعر بعامة دون تحيّز إلى جديد أو قديم، أو إلى شعر مكتوب بالفصحى وآخر بالعامية؛ لاسيما ونحن نبحث عن دليل حقيقي يثبت أثر الشعر وأهميته في حياة الإنسان، والتأكيد على أن من المستحيل أن يأتي على البشرية يوم تستغني فيه عن هذا الفن العظيم.

ولعلاقتي الحميمة بشعر العامية، وإدراكي لأبعاد الهدف الجليل الذي يتوخاه شعراء العامية من كتابة قصائدهم باللهجة الدارجة حرصاً منهم على إشباع احتياج الملايين المحرومة من قراءة روائع الفصحى، لذلك أسمح لنفسي بالاقتراب السريع من هذا الشعر المكتوب بالعامية والذي يمثل الوجه الآخر للإبداع الشعري في حياتنا، مع الاعتذار سلفاً بأن مجمل الشواهد، ولأسباب درامية وميدانية، ستكون في أقل الحدود ومقصورة على شاعر من مصر وثلاثة شعراء من اليمن.

■ ● ■

إن غواية الشعر، بوصفه فناً إنسانياً لا غنى للبشر عنه على اختلاف مستوياتهم الثقافية، لا تأتي من كونه صوت الحب وصوت الفرح والحزن فحسب، وإنما لكونه صوت تمجيد نضالات الإنسان في سبيل الحرية والعدالة الاجتماعية أيضاً، صوت التحريض على مقاومة المحتلين والغزاة

■ ● ■

وفي البدء أصارح القارئ بأنني لست مع أولئك الذين يذهبون إلى أنه بعد أن تعددت القراءات اللغوية والنحوية والصرفية والعروضية للشعر، المكتوب بالفصحى وتقيدت طموحاته داخل هذا القفص (الرسمي المدرسي)، لم يعد فناً يأسر القلوب، بل صار مادة تعليمية، ولذلك انصرف عنه الجمهور العاشق للشعر الحقيقي، شعر التعبير العفوي عن حاجة الإنسان إلى غذاء روحي يطرق الوجدان بسهولة ويسر. فكان هذا الشعر الملحون أو شعر العامية الذي يكتبه شعراء كل قُطْر عربي بلهجة الناس العاديين، ليثري عواطفهم بما يقدمه من نصوص شعرية لا تترك شأناً من شؤونهم إلاَّ وطرقته، هادفة بذلك إلى أن يظل الإنسان العربي على صلة وثيقة بالشعر، فن العرب الأول وعنوان لسانهم الأصيل.

■ ● ■

واللافت أن انتشار المدارس ودور العلم وزيادة عدد الصحف والإذاعات والفضائيات والتوسع في التعليم قد ضيق المسافة بين القصيدة المكتوبة بالفصحى والأخرى المكتوبة بالعامية،

■ ● ■

وما أراه وأكاد أجزم به أن هذا اللون من الشعر المكتوب بالعامية العربية قد كان موجوداً جنباً إلى جنب مع شعر الفصحى ومنذ وقت مبكر. وربما كان هذا الشعر هو الأصل قبل أن تتفصح الألسنة وتأخذ العربية الفصحى سَمْتَها اللغوي الأرقى. وأياً كان الأمر

فإن دراسة عن "الشعر في حياتنا" لا ينبغي أن تخلو من إشارات إلى هذا الرديف الشعري الذي يشغل حيزاً واسعاً من اهتمامات الخاصة والعامة في مشرق الوطن العربي ومغربه. وليست بي حاجة إلى تأكيد أننا نحب الفصحى ونتحمس لها ونذود عن حماها، ولكن ذلك لا يمنع أن نتقبل رافداً من روافدها النافرة ووليداً من أبنائها الخارجين على بعض فروض الطاعة.

واللافت أن انتشار المدارس ودور العلم وزيادة عدد الصحف والإذاعات والفضائيات والتوسع في التعليم قد ضيق المسافة بين القصيدة المكتوبة بالفصحى والأخرى المكتوبة بالعامية، وصارت أدوات التعبير اللغوي متقاربة بين القصيدتين إلى حد كبير، كما تكشف المتابعة الدقيقة لنماذج من هذا الشعر في مصر والشام والعراق واليمن والجزيرة والخليج وأقطار المغرب العربي. والنماذج المصرية واليمنية التي سأضعها بين يدي قارئ هذه الورقة كفيلة بأن تثبت ما أذهب إليه من انحسار الفارق بين ما يكتب من الشعر بالفصحى وما يكتب منه بالعامية، حتى في التشكيل المكاني للقصيدة والخروج بها من الإطار الموروث.

يقول صلاح جاهين في إحدى رباعياته الفلسفية:

خرج ابن آدم من العدم، قلت: ياه!
رجع ابن آدم للعدم، قلت: ياه!
تراب بيحيا وحي بيصير تراب
الأصل هو الموت ولاّ الحياة!؟
عجبي! [١٢]

وفي رباعية ثانية للشاعر تتحدث عن تبدل الفصول ومقاومة الإنسان لرياح متغيراتها:

دخل الشتا وقفل البيبان ع البيوت
وجعل شعاع الشمس خيط عنكبوت..
وحاجات كتير بتموت في ليل الشتا..
لكن حاجات أكتر بترفض تموت.
عجبي! [١٣]

وفي رباعية أخرى يكشف الشاعر عن حقيقة تبدو غائبة رغم حضورها الصارخ، حقيقة الحزن الدفين الذي يحتل قلوب البشر ويطل من عيونهم، بما فيها تلك العيون المخيفة القاسية:

أعرف عيون هي الجمال والحسن
واعرف عيون تاخد القلوب بالحضن
وعيون مخيفة وقاسية، وعيون كتير
وباحس فيهم كلهم بالحزن.
عجبي! [١٤]

ومن قصائد العامية اليمنية هذا المقطع من قصيدة طويلة للشاعر حسن عبد الله الشرفي، يرسم فيها انتشاء الإنسان وفرحته بالطبيعة كما تتجلى في واحد من وديان اليمن الكثيرة:

صليت للزهر في وادي "الجبر" ألف ركعةْ
صلاة مشتاقْ محرومْ
حوّمت مثل الفراشة بين فيشهْ وزرعهْ
غازلت كل النجومْ
غنيت للفل والريحانْ في كل بقعةْ
تشرب دموع الغيوم
يا نجمة الصبح يا أنسام خضر العشايا
رشي خدود القُبلْ
غَنِّيه ألحان أحلى ذكرياته معايا
خلّيهْ يطعم عسل شهر العسل
ما احلاهْ والرشْح يلمعْ في جبينه مرايا
وفي خدودهْ شفق صيف الخجل [١٥]

وينــدر أن توجد قرية يمنيــة دون أن يكون لها شــاعر أو أكثر، يغنــون جمال الطبيعــة ويحاكون الطيــور في احتفالهــا بكل نهار جديــد وبأضواء الشــمس التي تظهر على القرى فجأة منحدرة من وراء الجبال العالية. وما الشــعر فــي الأرياف إلاَّ اســتجابة لحاجة إنســانية يفرضهــا العمل، أولاً، والتخفيف من ضغوطه الثقيلة. أما لغة هذا الشعر فهي ما اصطلح على تســميته بـ"الدارجة القروية" التي تختلف من منطقة إلى أخرى، وأحياناً من قرية إلى قرية، وهي في صياغتها للشــعر لا تحتاج إلى ضبط وتدقيق ولا تعرف النحو والصرف. والشاعر معهــا حر بكل ما تحمله الكلمة من معنى الانفلات من القواعد النحوية والعروضية، رغم قرب بعضها مــن الفصحى، وإمكان وصولهــا إلى الجمهور من القــراء العرب فــي بلدانهم المتباعدة. وقاموســها المحدود -من وجهة نظر شــاعرها- كافٍ لتسجيل كل مــا يدور بذهنــه من أفكار ومــا يحيط به من مرئيات وأشــكال. وبدون صوته اليومي وغنائياته المســائية، تختنق القرية ولا يكون لها أمس ولا يوم ولا غد. الشاعر، أو بالأحرى الشعر، هو الذي يحدد كيــان القرية على الخريطة ويعطي لوجودها معنى غير المعنى المادي المتمثل في أحجارها وترابها وفي الأشجار والنباتات العشبية الهامشية.

ويجعلنا افتتان القرية بالشعر نؤمن بأن هذا الفن القولي طبعٌ هاجع ومســتقر في كل نفس، وأن مهمة الشعراء الذين يمارسون كتابته أو روايته لا تزيد على أنهم يعملون على إيقاظه من غفوته في تلك النفوس. والملاحظ أن لكل قصيدة دفئها وغيمتها وعصافيرها ودروبها وحقولها، ولها شمســها ونجومها وقمرها. وحين تنســاب بهدوء على الشــفاة، ترسم تكويناتها الضوئيــة والظليــة، وتجيء معها بأصــوات البلابل حيناً وأصوات الأغنام والأبقار وهي ترتع في المراعي القريبة أو النائية، وفــي ثنايا كلماتها تلمع الجداول المنحدرة من ســفوح الجبــال أو تلك التي تتمايل في هدوء الوديان، وما تشيعه من بهجة في نفس الشاعر أولاً، وفي نفوس مواطنيه ثانياً. وما كانت تلك الصور الواقعية لتصنع تلــك البهجة لو لم تكن قد تواطأت مع الشاعر لإظهار ما تحتفظ به من تأثير وجمال.

وبالتأكيــد ليــس الريف اليمنــي وحده هو من اســترجع الحالة الأولى للشــعر واحتفــظ به في حنينــه البدائي؛ فــكل أرياف الوطــن العربي، بل أريــاف العالم المتحضر، تفعل ذلــك في غفلة من فناني المدينة وشــعرائها. وإذا كان هناك فرق في المســتوى اللغوي بين قصيدة الفصحــى والعامية، فإنــه لا فرق جوهــري في التعبير عــن متطلبات الروح إلى شــعر مشحون باللوعة والشجن يتماشى مع ثقافة الإنسان الذي لا يعرف شيئاً عن قواميس اللغة ومترادفاتها واشــتقاقاتها، ولا يعرف ســوى عدد محدود من الكلمات التي يتداولها مع محيطه يوميــاً، ويجد فيها المقدرة على أن تخاطب وجدانه وتعبر عن هواجسه بمســتوى من التعبير الشعري لا يجد صعوبة في إدراك معانيه والاســتمتاع بما يقدمه من صور بســيطة وأفكار قريبة إلى وعيه. وكمــا أن لكل نص شــعري دوافعه، فصيحاً كان أم عامياً، فإن لكل متلقٍّ دوافعه وحاجته إلى مثل هذا النص الذي لا يشــك في أنه قــادر على أن يحرره من ضغوطه الروحية ويطهّره من أساه وأحزانه، أو يذهــب به في حلم لذيذ، بعيداً عن لحظات المعاناة والألم.

حنِّيت مثلكْ، أنا عندي حنينْ

وافكارْ مهما يقولوا شاردةْ
في داخلي كونْ تسمعْ لهْ دَنينْ
بَسْ، عادنا يا خبير باردِّدهْ
مثلي ومثلكْ ولا احنا ساكتين
أقلامنا للجماهيرْ رايدةْ
دارين غَثَّ الجماعةْ والسمينْ
الناقصةْ عندهم والزايدةْ
معروفْ سِعر الرباعي والثمينْ
كل المعايير عندي واجدةْ
ميزان شعبي بقسطاسهْ أزينْ
كل المقاعد بقعدةْ واحدةْ (١٦)

وهناك في الأرياف اليمنية شـعراء يتنقلون من مكان إلى آخر ويقرأون أشـعارهم فـي المنتديات اليومية المعروفة بـ "المقايل"، لاسـيما في الأعراس والمآتم، وتسجِّل قصائدهم الأحداث المحلية والعالمية أولاً بأول. وفيهم دعاة سياسـيون غير منتمين إلى أحزاب، وشـعرهم رصدٌ يومي للأحداث بأبعادها المختلفـة والمتعددة. وأبرز قصائدهم هي تلك التي تتحدث عن مأساة فلسـطين والعراق وعن قضايا السودان والصومال وأفغانستان.

قال الفتى: كيف اجي للوقت واترْجمِهْ؟
من أين يكون مبتدا درسي وأين اختتامِهْ؟
الوقت هذا مُعَّقدْ ما قدرت افهمِهْ
لانا عرفتهْ ولا استدركت معنى كلامهْ
ما زلت افتشْ على الفهرستْ في معجمِهْ
واقرأ حروفهْ عسى يسهل عليَّ افتهامه
ما زدْ دريت اينْ ظهْر الفحل من ميسمهْ
ولا عرفت الجملْ اينْ ارجلهْ من سنامهْ. (١٧)

وهنـاك الكثير، الكثير، مما يمكن أن يقال عن الشـعر وتأثيره في حياتنا. والأهم في ذلك أنه لم يعد كلاماً جميلاً تقرأه وتنتشي به أرواحنا، بل صار عند البعض في عالمنا الراهن طريقة وأسـلوباً في العيـش الطريق النظيف الجميل قصيدة، الحديقة الهادئة المقلمة الأشـجار والمرتبة الزهور قصيدة، والمنزل البسيط المؤثث بالكتب وشرائط الموسيقى الكلاسـيكية والحديثة قصيـدة، والصديق الذي يؤنس وجودك ويطرد عنك شـبح العزلة قصيدة. وإذا كان "جاك نسـير" في كتابه "الكلمة الخرساء" يقول: "يمكن لكل شيء أن يصبح لغة"(١٨)، فإن في إمكاننا نحن أن نقول إن كل شـيء حولنا يمكن أن يصبح قصيدة رائعة، بدلالات يوتوبية مسـتقبلية، تعيد إلى الإنسـان صفاءه الروحي وتطرح عنه ما تراكم علـى القلب من جراح الواقع الكئيب، وترمم انكساراته وهزائمه.

الهـوامـــش:

(١) عبد الســـلام المســـاوى، «جماليات الموت في أمكنة محمـــود درويش»، مجلة "أوان"، العدديـــن ٧ و ٨ العام ٢٠٠٥، ص٦٤.
(٢) طاهر رياض، «حلاّج الوقت»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٣، ص٦١.
(٣) سعدي يوسف، تحت جدارية فائق حسن، دار الفارابي، ١٩٧٤، ص٦١.
(٤) المنصف الوهايبي، «ميتافيزيقيا وردة الرمل»، ٢٠٠٢، ص١٢١.
(٥) عبد الرحمن البرقوقي، «شرح ديوان أبي الطيب المتنبي»، الناشر دار الكاتب العربي، بيروت، ١٩٨٠، ص٢-١٤.
(٦) نزار قباني، «الأعمال الكاملة»، منشورات نزار قباني، الطبعة الخامسة، ١٩٨٣، ص١٧٧.
(٧) أدونيس، تنبأ أيها الأعمى، دار الساقي، ١٩٩٩، ص١٩٩.
(٨) جودت فخر الدين، سماوات، دار رياض الريس، لندن، ٢٠٠٢، ص٧٢.
(٩) أحمد عبد المعطي حجازي، شجر الأسمنت، مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠١، ص١٠٦.
(١٠) محمود درويش، كزهر اللوز أو أبعد، رياض الريس، لندن، ٢٠٠٥، ص١٩٢.
(١١) محمد الماغوط، ديوان محمد الماغوط، الطبعة الثانية، ١٩٨١، دار العودة، بيروت، ص١٥٠.
(١٢) يحيى حقي، هذا الشعر، ص٨٦.
(١٣) المرجع نفسه، ص٨٨.
(١٤) نفسه، ص١١٢.
(١٥) حسن عبد الله الشرفي، ألوان من زهور الحب والبن، صنعاء، ١٩٧٩، ص١٩.
(١٦) علي عبد الرحمن جحاف، المجموعة الشعرية الكاملة، إصدارات وزارة الثقافة، صنعاء، ٢٠٠٤، ص٩٣.
(١٧) فيصل البريهي، بروق الخريف، مركز عبادي للنشر، صنعاء، ٢٠٠٥ ، ص٨٦.
(١٨) جاك نسير، الكلمة الخرساء. ترجمة سلمان حرفوش. دار كنعان. دمشق. ٢٠٠٣. ص٢٠٧.